كتاب الفلاسفة الموتى

The Book of Dead Philosophers

دكتور/ صلاح عثمان (أستاذ المنطق وفلسفة العلم – رئيس قسم الفلسفة – كلية الآداب – جامعة المنوفية – جمهورية مصر العربية)

Salah Osman

(Menoufia University, Egypt)

salah.mohamed@art.menofia.edu.eg

DOI: 10.13140/RG.2.2.17674.13764

مقال منشور بموقع أكاديمية بالعقل نبدأ، القاهرة، بتاريخ ١٨ فبراير ٢٠٢٣

With Mind We Start, 2023, February 18.

لا شك أن حقيقة موتنا هي أهم حقيقة عنا، على حد تعبير الفيلسوف الأمريكي «تود جيفورد ماي» Todd Gifford May (من مواليد سنة ١٩٥٥)؛ قد يكون الموت مأساويًا وتعسفيًا ولا معنى له للوهلة الأولى، لكنه في الوقت ذاته يفتح أمامنا الحياة الكاملة التي لم تكن لتوجد بدونه! فكيف يمكن أن نعيش في مواجهة النفي التام؟ كيف يجب أن نفكر في الموت؟ وهل يجب على الأطباء، الذين يُتهمون أحيانًا بأنهم دجالون يبيعون وهم الخلود، أن ينتبهوا أكثر لفلسفة الموت؟

الموت هو نهايتنا ونهاية تجربتنا، وهو ليس إنجازًا أو هدفًا، بل مجرد توقف، والأهم من ذلك أنه أمرٌ لا مفر منه، يتسم بالغموض أو الضبابية: لا نعرف متى أو أين أو كيف سنموت، لذا يسعى كثيرون إلى التعامل مع الموت بإنكاره، ولكن إن أردت أن تكون إنسانًا، وحيًا، تفهم معنى الحياة، فعليك أن تتعايش مع حقيقة الموت؛ عليك أن تسعى لاستكشاف وفهم ماهية الموت، وتلك هي الرسالة التي يوجهها الفيلسوف الإنجليزي المعاصر «سيمون كريتشلي» Simon Critchley (من مواليد ٢٧ فبراير ١٩٦٠) لقرائه من خلال مؤلفه «*كتاب الفلاسفة الموتى*» الصادر سنة ٢٠٠٨.

يقع الكتاب في ٢٦٥ صفحة من القطع المتوسط، وقد وضعته النيويورك تايمز على قائمة أفضل الكتاب مبيعًا في مارس سنة ٢٠٠٩، وتمت ترجمته إلى سبع عشرة لغة. يشير «سيمون» في مقدمة الكتاب إلى أنه ليس كتابًا للموتى على غرار الكتاب المصري الفرعوني القديم، فهذا الأخير يحوي ١٨٩ تعويذة جنائزية هدفها إرشاد روح الميت في رحلتها إلى العالم الآخر؛ كما أنه ليس ككتاب التبت للموتى (باردو ثودول Bardo Thodol) الذي يصف طقوس الموت الضرورية،

ويهدف إلى توجيه الشخص الميت خلال الفترة الفاصلة بين الموت والولادة الجديدة، عبر لقاءاته مع الآلهة الغاضبة والسلمية، الجميلة والمرعبة، والتي يجب فهمها على أنها توقعات للعقل. لكن هدف الكتاب بالأحرى هو الكشف عن ملابسات موت الفلاسفة على مرَّ العصور، إذ بها يمكن أن نعرف كثيرًا عن أفكارهم التي آمنوا بها وعاشـــوا من أجلها، بل وربما ماتوا دفاعًا عنها، هذا فضلاً عن طقوسهم الحياتية التي تبدو متسقة مع نهاياتهم.

لقد أعلن الفيلسوف النمسوي البريطاني «لودفيج فتجنشتين» Ludwig Wittgenstein (١٨٨٩ – ١٩٥١) ذات مرة أنك إن أردت أن تصبح فيلسوفًا، فعليك أن تصبح ميكانيكي سيارات (مهنة اشـتغل بها «لودفيج فتجنشـتين» بالفعل خلال جزء من الحرب العالمية الأولى)، لا أن تقرأ كتبًا في الفلســـفة، مؤكدًا أن العمل على الآلات بمثابة طريقة جيدة للتفكير في اللغة. كذلك أعلن الفيلســوف الفرنســـي «جاك دريدا» Jacques Derrida (١٩٣٠ – ٢٠٠٤) أنه، من بين جميع الكتب الموجودة في مكتبته، لم يقرأ ســـوى ثلاثة أو أربعة كتب، لكنه قرأها حقًا. أما «ســـيمون» فيتبع طريقًا ثالثًا في «كتاب الفلاسفة الموتى»، أقرب إلى «تاريخ الفلسفة الغربية» لـــ «برتراند رسل»، في محاولة منه للإمساك بحكمة الموت عبر مشهدٍ تصويري مُركز، وكأنه يجول بنا في مقبرة ضـــخمة للفلاســـفة، لا نقرأ فيها فقط أفكارهم عن الموت، بل نعرف أيضًـــا كيف عاشـــوا لحظاتهم الأخيرة، وكيف قضـوا نحبهم بطرقٍ شـتى. والرسـالة التي يحملها الكتاب بوضـوح: أنه ليس عليك أن تكون فيلسـوفًا حتى تقهر الموت، أو حتى تتعلم كيف تموت بهدوء ... الفلسـفة لا تأتي بحلول سحرية، فحتى الحكماء والقديسين كابدوا الموت وهم يبكون ويصطرخون!

من هذا المنطلق يقدم «سـيمون» قصـص موت ما يقرب من مائتي فيلسـوف عبر العصـور المختلفة، هي كما يوردها حكايات توصف بالغرابة، الجنون، الانتحار، القتل، سوء الحظ، الرثاء، الإسفاف، والكوميديا السوداء، وهاك بعض الأمثلة:

– «فيثاغورث» Pythagoras الرياضـي والفيلسـوف الإغريقي، صـاحب مبرهنة فيثاغورث، الذي كان وفقا للأسـاطير يجبر أتباعه على عدة أمور منها الامتناع عن أكل الفاصـولياء بهدف تنقية الجسم والنفس من النتائج العكسية الناجمة عن تناولها، بالإضافة إلى اعتقاده بأن أكل الفاصولياء يُشبه أكل اللحم البشري، وأن سحق حبة منها أو تحطيمها أو تلويثها من شأنه أن يؤذي الإنسان، مات مذبوحًا لأنه رفض عبور حقل فاصولياء فلحق به أعداؤه وفتكوا به!

– «هيراقليطس» Heraclitus فيلسوف التغير وصاحب عبارة: «إنك لا تنزل النهر مرتين»، مات حسـب إحدى الروايات غرقًا في روث البقر! حيث أصـيب بمرضٍ قيل له إنه غير قابل للشـفاء، فما كان منه إلا أن غاص في روث البقر، معتقدًا أن الرطوبة قد تســـاعده على الشـــفاء! ووفقًا لأحد المصـــادر، فإن الروث غطى رأس «هيراقليطس»، مما جذب بعض الكلاب البرية التي هاجمته ومزقت جسده!

–«أفلاطون» Plato فيلسوف المُثل، تزعم إحدى الروايات أنه مات مصابًا بعدوى القمل (ثمة رواية أنه مات في الثمانينات من عُمره أثناء نومه أو أثناء حضوره حفل زفاف)!

– «أرسطو» Aristotle قتل نفسه عن طريق الخطأ بتناول نبات يُعرف باسم البيش أو قاتل الذئب (أكونيط) Aconite (وهو نبات عُشبي سام تُستخرج منه مادة مخدرة ويُستخدم طبيًا كمسكن)، حيث كان يُعاني من سوء الهضم أو من مشاكل غير مُحددة في المعدة!

– «إمبيدوقليس» Empedocles فيلسوف العناصر الأربعة، لقي حتفه مُنتحرًا، حيث كان مقتنعًا بكونه إلهًا بعد علاج امرأة تُدعى «بانثيا» Panthea، عجز الأطباء عن علاجها، ولكي يُثبت لأتباعه أنه إلهٌ، قفز في بركان جبل إتنا النشط Mount Etna متحديًا الطبيعة، ولم يره أحد بعدها!

– «زينون الرواقي» Zeno of Citium شيخ الفلاسفة الرواقيين القدماء، تعثر وسقط ذات يوم أثناء مغادرته المدرسة، وكُسر إصبع قدمه. ولأنه كان مقتنعًا بأن الحكيم الرواقي يجب دائمًا أن يقوم بما هو مناسب للطبيعة، وحيث أنه كان طاعنًا في السن (كان يبلغ من العمر ٧٢ عامًا تقريبًا)، فقد شعر أنه من المناسب الموت، فقام بخنق نفسه حتى الموت!

– «ديوجين» Diogenes صاحب المدرسة الكلبية، الذي كان يحتقر الثروة والقوة، ويزدري الملذات الحسية وجميع متع الحياة التي يتنافس عليها البشر ويقتتلون. آمن بهذه الأفكار وسار علي نهجها طوال حياته، فكان يتناول أردأ أنواع الطعام، ويمشي في شوارع أثينا حافي القدمين مرتديًا أبسط الملابس، حاملاً بيده عصاه وعلى ظهره مخلاته ... انتحر هذا الفيلسوف الكبير كاتمًا أنفاسه بيده في جلسات متعددة، مما تسبب في تلف الدماغ حتى الموت (ويُقال إنه مات بعد تناول الأخطبوط الحي)!

– «زينون الإيلي» Zeno of Elea عبقري الرياضيات، وصاحب أشهر مفارقات حيرت العالم لقرون طويلة (مفارقات الكثرة والحركة)، قُبض عليه وهو يحاول قتل الطاغية «نيرخوس» Nearkhos (وربما «ديوميدون» Diomedon)، وعندما قام الطاغية باستجوابه بشأن المتآمرين معه والأسلحة التي كان يجلبها إلى «ليباراس» Liparas، أخبره أنه لن يستطيع أن يخبره بشيء إلا في أذنه فقط، ثم عض على أذن الطاغية ولم يتركها حتى مات طعنًا!

– «لوكريتس» Lucretius الشاعر والفيلسوف الروماني الذي شرح باستفاضة أفكار الاطراد الذري لكل مجالات الطبيعة من خلال قصيدته التعليمية العظيمة «في طبيعة الأشياء»، مات منتحرًا في الرابعة والأربعين من عمره بعد أن أصابه الجنون على إثر تناوله جرعة دواء ظن أن يولد الحب!

– «هيباتيا» Hypatia فيلسوفة الأفلاطونية المحدثة، واول امرأة يلمع اسمها كعالمة رياضيات، تم قتلها على يد مجموعة من الغوغاء المسيحيين عقب عودتها لبيتها بعد إحدى ندواتها، متهمين إياها بالإلحاد وممارسة السحر، حيث قاموا بجرها من شعرها، ثم قاموا بنزع ملابسها وجرها عاريةً

تمامًا بحبل ملفوف على يدها في شـوارع الإسـكندرية حتى تسـلخ جلدها، ثم إمعانا في تعذيبها، قاموا بسـلخ الباقي من جلدها بالأصـداف إلى أن صـارت جثة هامدة، ثم ألقوها فوق كومة من الأخشاب وأشعلوا بها النيران!

– «بوئثيوس» Boethius الفيلسوف والسياسي الروماني، صاحب كتاب «عزاء الفلسفة»، سجنه «ثيودوريك» Theodoric ملك القوط الشـرقيين سـنة ٥٢٣ تقريبًا، بعد أن اتُهم بشـجب الفسـاد الحكومي السائد، والتآمر مع الإمبراطور البيزنطي «جستن الأول» Justin I، ثم تم تعذيبه بقسوة، لينتهي الأمر بإعدامه سنة ٥٢٤!

– «يوهانز سكوت إريجينا» Eriugena الفيلسوف الأيرلندي الكبير الذي وصفه «برتراند رسل» بأنه «أكثر شـخص مدهش في القرن التاسـع»، ووصـفته موسـوعة سـتانفورد بأنه «أهم مفكر إيرلندي في الفترة الرهبانية المبكر»، تعرض للطعن حتى الموت من قبل طلابه بأقلامهم في أبرشية «مالميسبري» Malmesbury!

– «ابن سينا» Avicenna الشيخ الرئيس والمُعلم الثالث وأمير الأطباء الذي وضع حوالي ٤٥٠ كتابًا، بما في ذلك كتابه الأشـهر والأهم والأكثر تأثيرًا في أوربا لمدة سـبعة قرون: «القانون في الطب»، كان – على حد تعبير تلميذه الجرجاني – مُغرمًا بالنسـاء، مسـرفًا في الملاذ البدنية، وكانت القوة الجنسية هي الأكثر نشاطًا وهيمنة على ملكاته الشهوانية. وقد استعان «ابن سينا» بالطب في كل مرة كان يشعر فيها بالصراع بين النفس والجسد لكي يحقق التوازن لحياته القلقة، ما كان يضـطره كثيرًا لحقن نفسـه مرات عديدة في اليوم بالأدوية حتى تهالك جسـده من كثرة الكتابة والجنس. بالإضافة إلى ذلك، قام أحد خدامه، الذي سرق مبلغًا كبيرًا من المال، بإعطائه جُرعة كبيرة من الأفيون لمحاولة قتله. وفي خضـم هذه الحالة المحفوفة بالمخاطر، سـافر «ابن سينا» إلى أصفهان، لكنه كان قد أصبح ضعيفًا لدرجة أنه لم يكن قادرًا على الوقوف، واستسلم لمرضه في النهاية حتى مات عن عمر يناهز الثامنة والخمسين!

– «توما الإكويني» Thomas Aquinas الفيلسـوف واللاهوتي الإيطالي الكبير، مات بعد أن اصطدم رأسه بفرع شجرة في أوائل سنة ١٢٧٤ على طريق أبيان Appian بالقرب من مونتي كاسينو Monte Cassino.

– «وليام الأوكامي» William of Ockham الفيلسـوف الأكثر نفوذاً في القرن الرابع عشـر، وصاحب المبدأ المعروف باسم نصل أوكام Occam's Razor، مات سنة ١٣٤٩ نتيجة إصابته بالطاعون الأسـود الذي أودى بحياة معظم القادة الفكريين في شـمال أوروبا في منتصـف القرن الرابع عشر، وكان له دورٌ رئيسي في إحداث الانحدار الثقافي الذي استمر لأكثر من قرن.

– «جيوفاني بيكو ديلا ميراندولا» Giovanni Pico della Mirandola الفيلسوف والنبيل الإيطالي في عصر النهضة، مات سنة ١٤٩٤ عن عُمر يُناهز الحادية والثلاثين في ظروف غامضة مع

صديقه «بوليزيانو» Poliziano، وقيل إن سكرتيره «كريستوفورو دا كالاماغيوري» Cristoforo da Calamaggiore قد سمَّمه بدس الزرنيخ له في طعامه، بسبب انجذابه بشكل متزايد إلى تعاليم الراهب الدومينيكي (المعزول كنسيًا) «جيرولامو سافونار» Girolamo Savonarola.

– «جوليان أوفري دو لاميتري» de La Mettrie أحد رواد المدرسة المادية وفلاسفة التنوير في فرنسا، والذي كان يمجد الملذات الحسية، مات بعد تناوله كميات ضخمة من الباتيهات المحشوة الدسمة، كان السفير الفرنسي «تيركونيل» قد أرسلها له كنوع من الشكر والامتنان لأنه عالجه من مرض ألم به، فما كان من «لاميتري» إلا أن التهمها جميعًا، فأصيب بالحُمي والهذيان، ومات على الفور!

–«ديكارت» Descartes أبو الفلسفة الحديثة، مات نتيجة إصابته بالالتهاب الرئوي بعد أن أعطى درسًا في الصباح الباكر في فصل الشتاء بستوكهولم!

– «توماس مور» Thomas More الفيلسوف الإنجليزي المعروف، أُدين بالخيانة وتم قطع رأسه ووضعه على رمح على جسر لندن، وذلك بعد رفضه الاعتراف بالملك «هنري الثامن» Henry VIII كرئيس أعلى لكنيسة إنجلترا، ورفضه زواج الملك من «كاثرين أراجون» Catherine of Aragon. وقد قامت ابنته الكُبرى «مارجريت روبر» Margaret Roper برشوة حارس الجسر لاستعادة الرأس واحتفظت بها في بيتها، لكن الجواسيس خانوها وسُجنت، وأطلق سراحها قبل موتها سنة ١٥٤٤، ودُفن معها رأس أبيها. وفي سنة عام ١٨٢٤ تم فتح قبرها وعُرض رأس «مور» على الملأ في كنيسة «سانت دونستان» St. Dunstan’s Church في كانتربري لسنوات عديدة.

– «جيوردانو برونو» الفيلسوف والرياضي والمُنظر الفلكي الإيطالي، تم تكميم فمه وحرقه حيًا على وتد في كامبو دي فيوري Campo de’ Fiori في روما عقابًا له بعد تأييده نظرية كوبرنيكوس عن دوران الأرض!

– «جاليليو جاليلي» Galileo Galilei الفيلسوف والرياضي والفلكي الإيطالي الذي كان أحد معالم الثورة العلمية الحديثة، نجا من المصير ذاته الذي لقيه «جيوردانو برونو» بعد أن تراجع عن القول بمركزية الشمس، لكنه وُضع قيد الإقامة الجبرية حتى مات بسببها!

– «فرانسيس بيكون» Francis Bacon صاحب الأورجانون الجديد، مات نتيجة لمحاولته ملاحظة آثار التبريد، حيث قام بحشو دجاجة بالثلج في يوم شديد البرودة، فأصيب بالالتهاب الرئوي بعد أكلها!

– «فولتير» Voltaire الذي حارب الكنيسة الكاثوليكية ورجال الدين الذين كانوا يسيطرون على عقول البسطاء، وينشرون أفكار التعصب، أعلن من على فراش الموت أنه يريد أن يموت

كاثوليكيًا، وعندما سأله الكاهن «هل تؤمن بالمسيح؟»، قال متوسلاً: «أرجوك سيدي لا تتحدث بأمر ذلك الرجل أكثر من ذلك، واتركني أموت في سلام»!

– «لودفيج فيتجنشتين» Wittgenstein فيلسوف اللغة الضخم، مات في اليوم التالي ليوم ميلاده بعد أن أهداه صديقه بطانية كهربائية كهدية لعيد ميلاده، لكنها أودت بحياته!

–«ليبنتز» Leibniz الفيلسوف والرياضي الألماني، مؤسس علم التفاضل والتكامل (مع نيوتن) توفي وحيدًا، وتم دفنه ليلاً في حضور صديق واحد فقط!

– «هيجل» Hegel فيلسوف المثالية الألمانية وصاحب المنهج الجدلي وتناقض الفكر الذي يولد حركة التاريخ، كان موته أيضًا به تناقض، إذ قال بينما هو على فراش الموت يحارب الكوليرا: «هناك شخص واحد فقط في هذا العالم فهمني ... وحتى هو لم يفهمني»! ولعله كان يشير إلى نفسه!

ويبقى الموت في النهاية دربًا إلى الحياة، ومن أصابه فهمٌ خاطئٌ للحياة، سيكابد بالضرورة فهمًا خاطئًا للموت! يقولون إنه النومة الأخيرة، لكنه في الحقيقة اليقظة الأخيرة، وكونك غير ميت لا يعني أنك على قيد الحياة!

(قمت بنشره لأول مرة على صفحتي الشخصية بموقع فيسبوك بتاريخ ٢٩ مارس ٢٠١٥، وتم تداوله من قبل بعض الصفحات العامة المتخصصة في الفلسفة، وتأتي إعادة نشره هنا بعد تهذيب وتنقيح وإضافة).

***

توثيق المقال بنظام APA:

عثمان، صلاح (١٨ فبراير ٢٠٢٣). «كتاب الفلاسفة الموتى». أكاديمية بالعقل نبدأ، القاهرة. تم الاسترداد بتاريخ ٤ أبريل ٢٠٢٣ من:

https://mashroo3na.com/إصدارات/مقالات/كتاب-الفلاسفة-الموتى/

APA Citation:

Osman, S. (عثمان، ص) (2023, February 18). The Book of Dead Philosophers (كتاب الفلاسفة الموتى). Retrieved April 4, 2023, from https://mashroo3na.com/إصدارات/مقالات/كتاب-الفلاسفة-الموتى/

***